

سورة التَّغَابُنِ

هي مدنية ، وآياتها ثمانى عشرة ، نزلت بعد التحريم .
ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إنه في السورة قبلها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ،
وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .
(٢) نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، وهنا ذكر أن الأموال
والأولاد فتنة .
(٣) في السورة السابقة حث على الإنفاق في سبيل الله ، وفي ذكر التغابن
حث عليه أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ
مُؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) .

الايضاح

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) أى إن وجود ما في السموات والأرض
دالٌّ على تنزيه الله وكماله ، وإن هذه المخلوقات مسخرة منقادة له .

(له الملك وله الحمد) فهو المتصرف في جميع الكائنات ، الحمدود على جميع ما يخلق
ويقدر ، لأنه مصدر الخبرات ، ومفيض البركات .

(وهو على كل شىء قدير) فما أراد كان بلا مناع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .
ثم ذكر بعض مقدراته تعالى فقال :

(هو الذى خلقكم) أى هو الذى أوجدكم كما شاء على ما شاء .

ثم قسم هذا الخلق فقال :

(فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن) أى فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف
ما تقتضيه فطرته ، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ما تدعو إليه الفطرة كما
جاء فى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه
أو يمجسانه » وقد كانت الأدلة الكونية فى الأنفس والآفاق كفيلاً أن تردكم إلى
الحق ، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم ،
ولكنكم ما فعلتم ذلك ، بل تفرقتم شيعا ، وجحدتم الخالق ، وكفرتم بأنعمه عليكم ،
بعد أن أفصح الصبح لذي عينين .

(والله بما تعملون بصير) أى وهو البصير بمن هو مستعد للهداية لصفاء نفسه ،
وزكاء روحه ، فيعطيها ما هو له أهل ؛ ومن خبت طويته ، وفسدت سجيته ، ودسئ
نفسه بكبائر الذنوب والآثام ، وسيجزى بما هو به حقيق من العذاب الأليم فى جهنم
« إِنهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

وبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان ذكر النعمة الشاملة لخلق العالم كله على أنتم
ما يكون من الحكمة والعدل فقال :

(خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة المتضمنة لمنافع الدين والدنيا
(وصوركم فأحسن صوركم) حيث أودع فيكم القوى ، والمشاعر الظاهرة والباطنة
وجعلكم صفوة جميع مخلوقاته ، وخصكم بالخلاصة خصائص مبدعاته ؛ فالإنسان يضم
زوجا هو من عالم الأزواج ، وبيدنا هو من عالم الأشباح ، وأنشدوا :

وتزعم أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ

(وإليه المصير) في الحياة الآخرة ، وهو الذي يجازى كل نفس بما كسبت ، لامعقب حكمه وهو سريع الحساب ، فاصرفوا ما خلق لكم في شكره ، والوفاء بحق نعمه المتظاهرة عليكم ، ظاهرة وباطنة .

(يعلم ما في السموات والأرض) فلا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو يدبرها بحسب علمه الواسع ، وقدرته الشاملة « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم خص بعض ما يعلمه ، عناية بأمره ، إذ عليه الثواب والمعاقب فقال :
(ويعلم ما تسرون وما تعلنون) فاجعلوا أعمالكم ظاهرها وباطنها وفق ما يطلبه منكم الدين ، لتنالوا الفوز برضوان الله وجميل مثوبته .
ثم علل هذا بقوله :

(والله عليم بذات الصدور) أى لأنه تعالى محيط بجميع ما أضمره المرء في صدره ، واستكن في قلبه ، فلا يخفى عليه ما أسر وما يعلن .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا
أَبْشَرُ يَهْدُونَنَا؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) .

شرح المفردات

ألم يأتكم : هذا الاستفهام للتعجب من حالهم ، والنبا : الخبر الهام ؛ وأصل الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الطعام الوبيل أى الثقل على المعدة ، والوابل : المطر الثقيل القطر ، ثم استعمل في الضر لأنه يثقل على الإنسان

والأمر: الكفر وعبر به للايذان بأنه جناية عظيمة وأمر هائل، والبيئات: المعجزات، وتولوا: أعرضوا، واستغنى الله: أى أظهر غناه عنهم؛ إذ أهلكهم وقطع ديارهم.

المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه الأدلة على عظيم قدرته وواسع علمه، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه صورهم فأحسن صورهم، وأنه يعلم السر والنجوى — حذر المشركين من كفار مكة على تماديهم في الكفر، والجحود بآياته، وإنكار رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبين لهم عاقبة ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة؛ وضرب لهم الأمثال بالأمم المكذبة من قبلهم، فقد كذبوا رسلهم، وتمادوا في عنادهم، وقالوا: أرسل الله من البشر رسلا؟ فخلت بهم نعمة ربهم؛ وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ فأصبحت ديارهم خرابا يبابا، كأن لم يغنوا بالأمس، فهلا يكون ذلك عبرة لهم؛ فيشوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم لو كانوا من أرباب النهى.

الإيضاح

(الم يأتكم نبياً الذين كفروا من قبل فذاقوا نوبال أمرهم ولهم عذاب أليم) أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة نبياً الذين كفروا بالرسول من قبلكم كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم التي أصرّت على الكفر والعناد، كيف حل بهم عقاب ربهم، وعظيم نعمته؛ وأرسل عليهم ألواناً من العذاب لا يقبل لهم بها؛ فمن صاعقة من السماء تجتاحهم، إلى رجفة في الأرض تهلكهم، إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر، وتمحوهم من صفحة الوجود، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم؛ فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون؛ وسيكون لهم عظيم النكال والنوبال يوم تُجزى كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب.

وفي هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم في ذلك مددٌ كر ،
لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بين أسباب ما حل بهم من النعمة فقال :

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسالهم بالبينات فقالوا أشبر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا
واستغنى الله ، والله غنى حميد) أى إن ما حل بهم من سوء العذاب كان من جرأه
تكذيبهم بالرسول بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ؛ وقالوا: إن من
العجب العاجب أن يكون هدينا على يدى بشر منا لاميزة لهم عنا بعقل راجح ،
ولا سلطان يملكون به قيادنا ، ويجعل لهم بسطة النفوذ علينا ، كما قالت ثمود :
« أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ » وقد جهلوا أن النبوة رسالة يصطفى بها الله من يشاء
من عباده كما قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وبعد أن طال عنادهم وتآدوا في غيهم أهلكتهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع
دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم
وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده من النعم المتظاهرة عليهم ،
ظاهرة وباطنة .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ لِي وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ
الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْهُ
عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْقَوْزُ الْمَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

شرح المفردات

زعم فلان كذا : أى ادعى علمه بحصوله ، وأكثر ما يستعمل للدعاء الباطل ،
بلى : كلمة للجواب تقع بعد النفي لإثبات ما يعده كما وقع فى الآية ، لتبعين : أى لتعاسبن
وتجروُنَ بأعمالكم ، والنور : هو القرآن ؛ وسمى بذلك لأنه بين فى نفسه مبيِّن لغيره ،
والخبير : هو العليم ببواطن الأشياء ، يوم الجمع : هو يوم القيامة ؛ سُمى بذلك لأن الله
يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، والتعابن ، من قولهم : تعابن القوم
فى التجارة : إذا غبن بعضهم بعضاً كأن يبيع أحدهم الشيء بأقل من قيمته ، فهذا غبن
للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، وهذا غبن للمشتري .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف إنكار المشركين للألوهية ، ثم إنكارهم للنبوة
بقولهم : « أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » ثم عقبه بأنهم سيلقون الويال والنكال جزاء ما فعلوا -
أردف ذلك بذكر إنكارهم للبعث ، ثم بإثبات تحققه وأنه كائن لاحتالة ، وأن كل
امرى سيجازى بما فعل يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد حين يعذب
الكفار فى شرابهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، ويفوز المؤمنون
فى تجارتهم بالصفقة الرابحة ، لأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة فضلا
منه ورحمة .

الإيضاح

(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) أى ادعى المشركون أن لا يبعث ولا يحساب
ولا جزاء فقالوا : « أَأَنْذَاكُمْ تَرَابًا أَثْنًا لِنِي خَلَقِي جَدِيدًا ؟ » وقالوا : « مَنْ يُحْيِي
الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ »

فأمر رسوله بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله :

(قل بلى وربى لتبعننَّ ثم لتنبئنَّ بما عملتم وذلك على الله يسير) أى قل لهم : إن البعث كائن لا محالة ، وإنكم وربى الذى برأ الخلق وأنشأهم من العدم ستحاسبين على أعمالكم وتجزونَّ على الكثير والقليل ، والنمير والقطمير ، وذلك هين عليه يسير .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَيَسْتَنْبِئُوكَ أَحَقُّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَخَلْقٌ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَأَتَاتِيَنَّكُمْ » الآية .

وبعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة بما لا مجال معه للإنكار — طالبهم بالإيمان بهما فقال :

(قَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا) أى فصدقوا بالله ورسوله وكتابه الهادى لكم إلى سواء السبيل إذا تراكت ظلمات الشبهات ، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات .

ثم توعدهم على ما يأتون وما يذرون فقال :

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فلا تخفى عليه أعمالكم ، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير أو اكتسبت من شر ، فراقبوه وخافوا شديد عقابه .
(يَوْمَ يَجْمَعُكُم لِيَوْمِ الْجَمْعِ) أى وتذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء فى صعيد واحد ، يسمهم الداعى وينفذهم البصر ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ونحو الآية قوله تعالى : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ » وقوله : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » .

(ذلك يوم التغابن) فالكافرون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فحسرت صفقتهم ولم يربحوا فيها، والمؤمنون باعوا أنفسهم بالجنة فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين، وفي الصحيح « ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكريا، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة، ليزداد حسرة ». . .
والخلاصة — إنه لاغبن أعظم من أن قوما ينعمون، وقوما يعذبون، وأن قوما مغبونين في الدنيا أصبحوا في الآخرة غابنين لمن غبنوهم فيها .

ثم بين هذا التغابن وفصله بقوله :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته وينته إلى أمره ونهيهِ — يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار لا تبثن فيها أبدا لا يموتون ولا يخرجون منها، وذلك هو الفوز الذى لا فوز بعده، لانطوائه على النجاة من أعظم المهالك، وأجل المخاطر .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) أى والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بأدلتها وآى كتابه الذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبدا، وبئس النار مصيرا لهم .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

شرح المفردات

المصيبة : ما ينال الإنسان ويصيبه من خير أو شر ، بإذن الله : أى بقدرته ومشيئته ، يهد قلبه : أى يشرحه لزيادة الخير والطاعة :

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن الناس قسمان : كافر بالله مكذب لرسوله لا يألوا جهدا فى إيصال الأذى بهم ، ومؤمن بالله مصدق لرسوله وهو يعمل الصالحات - أردف ذلك ببيان أن ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره بحسب النظم التى وضعها فى الكون ، فعلى الإنسان أن يجتهد ويعمل ، ثم لا يبالى بعد ذلك بما يأتى به القضاء ، لعلمه بأن ما فوق ذلك ليس فى طاقته ، ولن يهوله أمره ، ولن يحزن عليه ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وأبان أن تولى الكافرين عن الرسول ان يضيره شيئا ، فإنه قد أدى رسالته .

وما على الرسول إلا البلاغ ، وأن على المؤمن أن يتوكل على الله وحده ، وهو يكفيه شر ما أهمه .

الإيضاح

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى ما أصاب أحدا من خيرات الدنيا ولذاتها أو رزاياها وشرورها - فهو بقضاء الله وقدره بحسب ما وضع من السنن فى نظم الكون ، فعلى المرء أن يعمل ويجتهد ويسعى لجلب الخير ودفع الضر عن نفسه أو عن غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم هو لا يحزن ولا يفتن لما يصيبه بعد ذلك ، لأنه قد فعل ما هو فى طاقته وما هو داخل فى مقدوره ، وما بعد ذلك فليس له من أمره شيء .

وإخلاصة — إن على المؤمن واجبين :

- (١) السعى وبذل الجهد في جلب الخير ودفع الضر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .
- (٢) التوكل على الله بعد ذلك ، اعتقاداً منه أن كل شيء يحدث فإتماً هو بقضائه وقدره ، فلا يعتمد ولا يحزن لدى حلول الشر ، ولا يتأدى في السرور عند مجيء الخير .

ثم بين أن الإيمان يضيء القلب ، ويشرح الصدر لخير العمل فقال :

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ويشرح صدره ، لازدياد الخير والمضي قدماً في طاعة الله ، وأيُّ نعمة أعظم من هذه النعمة ؟ جدُّ في عمل الخير ، واستراحة لدى النعم والحزن ، واطمئنان للنفس ، ووثوق بفضل الله .

(والله بكل شيء عليم) أى والله عليم بالأشياء كلها ، فهو عليم بالقلوب وأحوالها ومطلع على سرها ونجواها ، فأحذروه وراقبوه في السر والعلن ، كما جاء في الأثر « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلغ ، وافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنده نهى وزجر ، فإن أعرضتم عن ذلك فإنما عليه أداء ما حُل من الرسالة ، وعليكم ما حلت من السمع والطاعة ، وهو قد أدى ما عليه ، ولا يكلف شيئاً بعد ذلك .

(الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى وحدوا الله وأخلصوا له العمل وتوكلوا عليه ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

وفي هذا إيماء إلى أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ، ولا يتقوى إلا به ، لأنه يعتقد أنه لا قادر في الحقيقة إلا هو ، وفيه حث لرسوله صلى الله عليه وسلم على التوكل

عليه ، والتقوى به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، وكأنها تشير إلى أن من لا يتوكل عليه فليس بمؤمن ، وهي كالحاتمة والفلكة لما تقدم .

يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقَرَّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) .

شرح المفردات

فتنة : أى بلاء ومحنة ، ومن يوق : أى من يحفظ نفسه ، والشح : البخل مع الحرص ، والقرض الحسن : هو التصدق من الحلال ، هو التصدق بإخلاص وطيب نفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وذكر أن المؤمن ينبغي أن يتوكل على الله تعالى ولا يعتمد إلا عليه — ذكر هنا أن من الأولاد والزوجات أعداء لأبائهم وأزواجهم يثبطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ولا تتبعوا أهواءهم حتى لا تكونوا إخوان

الشياطين يزينون لكم المعاصى ويصدونكم عن الطاعة ؛ ثم أردف هذا ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده ، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، فغصب المال أو غيره لأجلهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وليتفق ذو سعة من سعته ، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح فهو الفائز بخيرى الدنيا والآخرة ، ومن أقرض الله قرصاً حسناً فالله يضاعف له الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، وهو عالم بما يغيب عن الإنسان وما يشاهد ، وهو العزيز الحكيم فى تدبير شئون عباده .

أخرج الترمذى والحاكم وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهموا فى الدين هموا أن يعاقبهم فأنزل الله : « وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَضَعُوا وَيَتَغَفَّرُوا » الآية . وفى رواية عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن ، فجمع الله بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله : إن من أزواجكم وأولادكم أعداء لكم يحولون بينكم وبين الطاعات التى تقر بكم من ربكم ، والأعمال الصالحة التى تنفعكم فى آخرتكم ، وربما حملوكم على السعى فى اكتساب الحرام ، واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجته وولده ، يعيرانه بالنقر ، فيركب راكب السوء فيهلك » .
ومن الناس من يحملهم جهنم والشفقة عليهم ، ليكفروا فى عيش رغد فى حياته

وبعد ماته ، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سببا لذلك ، وإن لم يطالبوه فيه .

ومن المفسرين من حمل العداوة على العداوة الدنيوية وقالوا : إن الزوجات والأولاد ربما آذوا أزواجهم وآباءهم ، وجرّ عوم القُصص والآلام ، وربما جرّ ذلك إلى وضع السمّ في الدسم أو إلى قتلهم ، وفي المشاهد أكبر عبرة لمن اعتبر .

والخلاصة — إنه إما يراذ بالعداوة العداوة الأخروية ، فإن الأزواج والأولاد ربما أضروا بأزواجهم وآبائهم فيها إذا منعوهم عن عمل الخير لها ، وإما أن يراذ العداوة في الدنيا فتكون عداوة حقيقية بينهم لها آثارها الدنيوية .

ثم أرشدهم إلى التجاوز عن بعض هتاتهم فقال :

(وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) أى وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها بترك المعاقبة ، وتصفحوا بالإعراض وترك التشريب عليها ، وتغفروا بإخفائها ، وتمهيد معذرتهم فيها ، فهو خير لكم فإن الله رحيم بكم وبهم ، ويعاملكم بمثل ما عاملتم ويتفضل عليكم .

ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال :

(إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار، إذ كثيرا ما يترتب على ذلك الوقوع في الآثام ، وارتكاب كبير المحظورات. وقدمدت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة كما قال : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ . أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى » .

أخرج أحمد والطبراني والحاكم والترمذى عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتي المال » . (والله عنده أجر عظيم) لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأولاد وطاعتهم ، فلا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ، ولا تؤثرهم على ما عند الله من الأجر العظيم .

(فاتقوا الله ما استطعتم) أى ابدلوا فى تقواه جهدهم وطاقتهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » .

ونحو هذا ما جاء فى قوله : « اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .
 (واسمعوا وأطيعوا) أى كونوا منقادين لما يأمركم الله ورسوله به ، ولا تحيدوا عنه يئمة ولا يسرة ، ولا ترتكبوا ما نهيتكم عنه .
 (وأنفقوا خيراً لأنفسكم) أى ابدلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا ، وذلك خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ؛ وهذا حث على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الإنفاق فقال :

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفاترين بكل ما يرجو ، ونيل كل ما يبغي فى دينه ودنياه ، فيكون محبوباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ومحبته ورضوانه ودخول جناته .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال :

(إن ترضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم) أى إن تنفقوا فى طاعة الله ، منقرين إليه بإخلاص وظيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف ، ويستركم ما فرط من زلاتكم ؛ جاء فى الصحيحين : « إن الله يقول : من يقرض غير ظالم ولا عديم ؟ » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله : استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى ، ويشتمنى عبدى وهو لا يدرى ، يقول وادهره وادهره » وأنا الدهر ثم تلا أبو هريرة هذه الآية « أخرجه ابن جرير والحاكم وصححه .

ونحو الآية ماجاء في سورة البقرة : « فَيَضَاعِفُهُ لَهُ أُضْعَافًا كَثِيرَةً » .
ثم بين علة المضاعفة ورغب في النفقة فقال :
(والله شكور حلیم) فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه
بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .
ثم ذكر ما يزيد في الترغيب في النفقة أيضا فقال :
(عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) أى هو العليم بما غاب عنكم وبما
تشهدونه ، فكل ما تعملون فهو محفوظ لديه فى أم الكتاب ، لا يعزب عنه مثقال
ذرة ، وسيثيبكم عليه ويجازيكم به أحسن الجزاء ؛ وهو ذو العزة والقدرة ، النافذ الإرادة
الحكيم فى تدبير خلقه على ما يعلم من المصلحة .

خلاصة ما حوته السورة

- (١) صفات الله الحسنى .
- (٢) إنذار المشركين بذكر ما حلّ بمن قبلهم من الأمم مع بيان السبب فيما نالهم
من ذلك .
- (٣) إنكار المشركين للبعث .
- (٤) بيان أن ما يحدث فى الكون فهو بأمر الله وتقديره .
- (٥) تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لا يضيره إصرارهم على الكفر .
- (٦) إن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء .
- (٧) الأموال والأولاد فتنة وابتلاء .
- (٨) الحث على التقوى والإنفاق فى سبيل الله .